ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 18 يوليو 2018

نساء بصيغة المفرد

جوليا كرستيفا
ترجمة: فؤاد أعراب

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018
All rights reserved © 2018

نساء بصيغة المفرد[1]

جوليا كرستيفا
ترجمة: **فؤاد أعراب**

1 نشر هذا الحوار المترجم في كتاب: Julia Kristeva, *Seule Une Femme*, Ed. L'Aube, 2007, pp.114-128.

يشار إلى أننا ارتأينا ترجمة عنوان الحوار، الذي ورد في صيغته الفرنسية كما يلي Une(s) femme(s)، بـ «بنساء بصيغة المفرد»، وهو ما ينسجم مع فهم خاص لكرستيفا للقضية النسائية، محوره أن كل امرأة تراكم في وجودها النفسي والاجتماعي تجارب عقلية ووجدانية وجمالية متنوعة ومختلفة تميزها عن الأخريات. يتعارض هذا المنظور، الذي تدرجه الفيلسوفة ضمن الجيل الثالث من النسوية، مع التصورات النسوية التقليدية التي أعادت إنتاج ما أسماه دريدا بمنطق التماهي مع السيطرة الذكورية، وهو منطق يذيب النساء في كتلة قطيعية متشابهة ومنصهرة في هوية واحدة توجهها شعارات موحدة.

تقديم الترجمة

تطلعنا المفكرة جوليا كرستيفا، في هذا الحوار المثير، على أسس تصورها الفلسفي والعلم-إنساني لقضية المرأة وللهوية النسائية وعلاقتهما بالإبداع. تعتقد كرستيفا أن القضية النسائية في المجتمعات الغربية توجد في قلب رهانات سياسية كبرى، وهو ما يحدد معالم جزء كبير من الجدالات الفكرية الراهنة حول تعريف مفاهيم الأنوثة، الأمومة، الذكورة والأبوة. ففي خضم هذه الصراعات الفكرية المحكومة بخلفيات إيديولوجية، لجأت بعض التيارات النسوية إلى تبني منطق الرفض الجذري لصورة الأب، باعتباره ممثلا للسلطة وللمنع، وانتهجت، بالتالي، خيار المطالبة بهدم كل صور القمع بغاية تشييد مجتمع فوضوي وخال من الموانع.

هذا السياق الموسوم بتصدع القيم وتفكك المؤسسة الأسرية وهشاشة القانون والانسحاب التدريجي للأب من مسرح التنشئة الاجتماعية، حث كرستيفا على تفنيد ادعاءات الحركة النسوية، معتبرة مطمح إنطاق الأنوثة والأمومة، رغم ملازمة قانون الأب للغة، ممكنا من خلال استكشاف النظام السيميائي، وعبر تشريح العمق البيولوجي والتنقيب عن الآثار اللاشعورية المضمرة في النصوص ومجمل الإنتاجات الرمزية. صحيح أن تليين الموانع مسعى نضالي إنساني مشروع، كما تبين الباحثة، لكن القوانين والقواعد تظل أساسية، لأنها تشترط الوجود وحياة اللغة والفكر. لذا، فاستعمال الشفرات داخل اللغة، يستجيب لضرورة حماية المرأة من الهجمات النزوية ويضمن، في الوقت ذاته، اشتغال اللعب الإبداعي للنموذج السيميائي داخل الخطاب.

إذا كانت كرستيفا تصرح برفضها للتصورات المناوئة للقوانين المنظمة للنسق الرمزي، فإنها تسعى، في المقابل، إلى بلورة كيفية جديدة للنظر، قائمة على الإنصات العميق للتحولات السوسيوثقافية التي يعرفها الغرب. لقد قادها هذا التصور، من جهة، إلى تشخيص القلاقل السياسية والتمزقات الاجتماعية، مع التنبيه إلى أن إضعاف قانون الأب يهدد بخلخلة التوازن النفسي والاجتماعي. لذا، تصر على الاستعجال برتق هذه الهوة الحضارية الكبرى، وهو ما لا يعني إعادة إنتاج الأنساق الباطريركية القمعية، بل على النقيض من ذلك، تليين القوانين من دون التضحية بصورة الأب. من جهة أخرى، يقتضي تشخيص أعراض أزمة الثقافة الغربية المطبوعة بهشاشة صورة الأب وتشفير جسد الأم، الاستعانة بأدوات البحث في العلوم الإنسانية ومن بينها التحليل النفسي والسيميائيات والسوسيولوجيا والأنثروبولوجيا، من أجل الإحاطة الشاملة بالعوالم النفسية واللغوية والثقافية للذات الأنثوية، وإيجاد سبل استنطاق المكبوت الأمومي بواسطة الإعلاء الجمالي.

في الواقع، يعد الاهتمام المتزايد بالمرحلة ما قبل الأوديبية وبعلاقة الذات الأنثوية بالأم علامة فارقة في حقل الدراسات المنصبة حول قضايا المرأة، بالنظر إلى أنها أعادت تأويل الوظيفة الأمومية ليس

كمكبوت قابل للانفجار، بل كامتداد لبعض الممارسات الجمالية المهمشة التي من شأنها إنقاذ المرأة من الحصار النفسي والاجتماعي الذي يبلغ ذروته في أحد أقسى أعراض الحرمان من التعبير: الذهان. تنبع أهمية الاشتغال الفكري الكريستيفي على الذات الأنثوية، من كونه يعلي من شأن المرحلة ما قبل الأوديبية، حيث تتجذر العلاقة القديمة ذات أنثوية/أم. وما يميز هذه العودة إلى ما قبل الأوديبي هو تمكينها للسيميائي من الإفصاح عن ذاته ومن التمفصل مع الإبداع. بعبارة أدق، تسمح الإنتاجات الفنية النسائية لليبيدو وللنزوة بالكلام من خلال آلية الإعلاء. وهذا الاشتغال الاستعاري للعلاقة مع تغايرية الجسد الأمومي هو ما يسمح بتشجيع المرأة على التجديد والابتكار. علما أن التجديد النسائي ليس تكرارا للخطاب الأبوي ولا ارتدادا نحو الأم القديمة، بل، على العكس من ذلك، هو ما ينسج خيوط اندغام السيميائي والرمزي داخل نسيج النص، ويمكن المرأة من الاهتمام بنزواتها الليبيدية باستثمار هذه الأخيرة إيجابيا داخل التجربة الرمزية.

ومن أجل الإفلات من قبضة الرؤى الامتثالية التي تحشد النساء ضمن قطيع نسوي واحد متشابه ومتجانس بلا فوارق، تسلط المفكرة البلغارية الضوء على التفرد كصيغة راقية للوجود النسائيَ؛ أي كبعد حميمي للأنوثة من خلال ترك الأزمات النرجسية والصدمات النفسية تعبر عن نفسها فنيا وجماليا، في أفق تمكين كل امرأة من التخلص من معاناتها، وإعادة تشكيل كينونتها الخاصة وتجديد روابطها بالمجتمع، والتعبير عن تفردها داخل النظام السوسيو-رمزي. فضلا عن تناول إشكالية الاختلاف الجنسي كمنفذ لترجمة التنوع والتعايش بين الذوات الذكورية والذوات الأنثوية، وكمدخل للكشف عن علاقاتهم المتنوعة بالسلطة وباللغة وبالمعنى، استنادا إلى هويات متحركة ومتفردة تستسقي عناصرها من غرابة الذات والغيرية والاختلاف.

الحوار المترجم

إليان بوكي: تطرح خصوصية الإبداع النسائي قضية قبلية تتعلق بمعرفة ما المقصود بالهوية النسائية التي نسعى للبحث عنها في هذا الإبداع.

جوليا كرستيفا: يبدو لي أنه توجد طريقتان لتفكيك شفرة ما يمكن أن ندعوه بـ«هوية نسائية». من جهة، قد تفهم كشكل داخلي في تنظيم العقلانية الاقتصادية؛ أعني بذلك أننا بعملنا على انعتاق النساء، يمكننا تحرير يد عاملة نسائية ضرورية للاقتصاد وللتحكم في النمو السكاني وتكييف البنيات العائلية التقليدية، وبالمحصلة، الأخلاق القديمة مع المتطلبات الجديدة. بخلاف ذلك، يمكن للرواسب الإيديولوجية القديمة أن تفاقم التناقضات الاجتماعية وتسبب انفجارات لا تصب نتائجها بالضرورة في صالح اليسار. كمثال على «الوضع النسائي» الملازم للعقلانية الاقتصادية ولضبطها الذاتي، يمكن استحضار التصويت من طرف المجلس الوطني الفرنسي على القانون المتعلق بالإجهاض: لقد قام بتصفية النزعات المحافظة التي تعد دينية في نهاية المطاف، واتفق بذلك مع المطالب التقدمية للشرائح غير المحظوظة اجتماعيا، بمصاحبته لسيرورة التحديث التي أطلقتها البورجوازية التكنوقراطية والليبرالية الجديدة. يقام الدليل إذن على أن طرح مشاكل كتلك التي تخص النساء وهويتهن، يستتبعه ملامسة محور آخر من التماسك والتطور الاجتماعيين، محور لا يتعلق بالوعي الطبقي وإنما بعلاقات إعادة الإنتاج، ومن خلال هذه الأخيرة، بما يمكن أن ندعوه باللاوعي.

لكن يوجد جانب آخر من «الهوية النسائية»: من خلال بعض السمات البيولوجية والفيزيولوجية، تبدو الهوية النسائية كواقعة رمزية وككيفية للعيش في مواجهة التماسك الاجتماعي وسلطة اللغة. وسأضع نفسي من الآن فصاعدا في هذا الإطار فقط؛ يمكن تحليل المشكلة النسائية على غرار ما أدعوه بـ«مفعول امرأة» من جهة أولى، وكـ«وظيفة أمومية» من جهة ثانية.

مفعول المرأة

يقصد بمفعول المرأة، في مجتمعاتنا التوحيدية-الرأسمالية، علاقة خاصة بالسلطة وفي نفس الوقت باللغة أو، إذا شئت، بسلطة اللغة. لا تقوم هذه العلاقة الخاصة على امتلاكهما (من طرف المرأة) بل على أن تشكل ضربا من الدعامة الصامتة لهما، خادمة في الكواليس؛ أي صنف من الوسيط الذي يتوارى عن الأنظار. أطلقت على هذا النظام من الاشتغال اللساني (الذي يمكن أن يكون اجتماعيا كذلك) اسم السيميائي le sémiotique، الذي نستشعره ليس فحسب في الإيقاعات، الترنيمات والمصادات الكلامية الطفولية، بل أيضا في الخطابات التي تشير بصفة أدق إلى المتعة الذاتية في الممارسات المدعوة جمالية أكثر من دلالتها على «موضوع» ما. سأعود بعد قليل إلى الحديث عن الإنجازات اللسانية. أود في البداية الإشارة

إلى الصورة الاجتماعية التي يمكن أن يتجلى فيها مفعول المرأة هذا ليس كسلطة ولا كنسق للغة، بل كدعامة صامتة له تعمل على استثماره وتجاوزه.

في مقدورنا العثور على هذه الظاهرة في المجتمعات المسماة بدائية؛ فعلى سبيل المثال، تشكل النساء في هذه المجتمعات موضوعا للتبادلات المؤسسة للسلطة الضرورية لممارستها، لكنهن غائبات عن هذه الممارسة ذاتها. هناك أيضا مثال آخر: إلحاق المرأة بالاسم وبالسلطة الأبويين داخل العائلة ذات النسب الذكوري والأبوي، رغم أن المرأة تمارس سلطة حاسمة لكنها غالبا ما تجابه بالإنكار. نجد أنفسنا هنا في خضم جدلية السيد والعبد التي تعطي لـ«مفعول المرأة» دورا مشابها للعبد. يمكن للمرأة، داخل هذه الوضعية، أن تحوز وعيا مستترا، معرفة مضمرة عن البنية وبالمحصلة عن السلطة الاجتماعية عينها: فالعبد يعلم الشيء الكثير عنها أفضل من السيد. وبالنتيجة، يعد «مفعول المرأة»، في بعض الأحيان، الوجه المتواري، والأكثر أهمية، ليس فقط للسلطة الزمنية بل أيضا للسلطة الدينية: لا يوجد إله لا تسنده طاعة عاشقة، «أنثوية»، مفيدة للشريكين معا. قد يستبطن رجل ما «مفعول المرأة»، ذلك ما تبرهن عليه المثلية الذكورية، التي يرى فرويد أنها تدخل في أساس كل التنظيمات الاجتماعية: الجيش، المدرسة، إلخ.

التماهي مع السلطة

في ظل وضعية الخضوع هذه، يمثُل قدَران أمام تلك التي تجد نفسها تمتلك المحددات غير الجلية والمضمرة للسلطة واللغة، رغم أنها مستبعدة منهما، إما أن تلعب هذه المرأة دور النزعة السلبية أو الإنهاك الذي يدفع السلطة إلى أبعد مداها، ويحتج ضدها. هذه هي الوظيفة الكلاسيكية للمصابة بالهستيريا، التي يمكنها أن تنفجر بالمعنى الإيجابي، ولما لا، على شكل أعراض ثورية مهيكلة لهذه التجربة. وإما إمكانية أن تطالب بالسلطة إلى درجة التماهي معها وبالتالي حيازتها، وهذا قدر آخر لـ«مفعول المرأة» الذي يبدو أن الحداثة تشجعه. يمكن أن نتساءل عن بعض المطالب النسائية وعن مدى فشلها في مسعى التماهي مع السلطة، لتصير ضربا من مناهضة-السلطة التي ترمم تصدعات السلطة الرسمية: الأرض الموعودة لمجتمع متناغم نتخيله مشكلا في النهاية من النساء اللواتي يمتلكن فقط المفتاح الرفيع للغز مجتمع بدون تناقضات.

علاوة على ذلك، غالبا ما يتم تدبير هذا التماسك الاستيهامي من طرف أم بدائية ذات صفات أبوية. يمكن أن نشاهد ذلك في بعض صيغ الاشتراكية، حيث تخيلت بعض المجتمعات الطوباوية نفسها على هذا النموذج: كائن غير مميز جنسيا يضمن تماسكها لكنه في نهاية المطاف يتمتع بصفات أبوية. هكذا يمكن لمجاملة صادرة عن التقليد الطوباوي لليسار أن تصل إلى حدود قبول حقوق المرأة بشرط ألا يسمح هذا الأمر بإظهار الجنس الآخر كآخر، ككاشف للتناقضات، للمستحيل، كقاضم للوفاق الاجتماعي.

أخيرا تنغمس هذه الاعترافات بـ«الخصوصية» أو بـ«الإبداعية» في ما يمكن تسميته بمماثلة النزعة الإبداعية والخصوصية النسائية بالبنيات والهويات الخاصة بالمجتمعات الأبوية والتوحيدية؛ فهي لا تعترف بالخصوصية النسائية: بل تعمد إلى تقييدها، تهذيبها وتطبيعها داخل الكوني، وبناء على ذلك، لا نتحدث عنها. في المقابل، كان بمقدور حركة النساء أن تحقق سبب الوجود لو شكلت دائما احتجاجا على ما هو متعارف عليه وعلى ما هو قائم، لو كانت سخرية، ضحكا، نقدا للذات الذي لا يعفي حتى النسوية نفسها.

على سبيل المثال...

إليان بوكي: خطران إذن يحدقان بالمرأة، نفس الأمر بالنسبة إلى الرجل الذي يمكن أن يتواجد في نفس وضعية الإذعان. من جهة، الارتداد نحو ما قبل الأوديبي، نحو الأم البدائية - تلك الحماية المطلقة والمحيطية[1]؛ أي وهم ولوج مجتمع مثالي وبدون تناقضات. من جهة ثانية، التماهي مع السلطة القضيبية التي تحرص المرأة على امتلاكها أو اقتسامها؛ تماهي يتضمن التخلي عن دور حامل التناقض، عن دور الجنس الآخر. هل يمكنك تقديم أمثلة عن هاتين العقبتين؟

جوليا كرستيفا: هناك مثال على التماهي القضيبي الذي يتجلى في الدور الذي لعبته النساء في الانقلاب على أليندي[2]، حيث تماهين مع الرجعية، لأن اليمين قدم خطابا يهتم بأنوثتهن وبالأطفال وبالبيت... بينما ظل اليسار حبيس خطاب الصراع الطبقي الذي لا يعترف بالمحددات الليبيدية. لقد قامت بعض الشيليات بالاعتداء على أنصار أليندي ووصفهم بالفاسقين والمثليين. ينبغي أن ينصت خطاب اليسار أكثر لهذا المستوى من الحاجات ما قبل السياسية واللاواعية. أن يكلم اليمين لغة تستجيب لهذه الانتظارات، معناه أن بإمكانه أن يفوز بانضمام مزيد من العضوات النسائيات اللواتي هن، في الواقع، محافظات وتوتاليتاريات، لكن تظل العقلانية الكلاسيكية عاجزة أمامهن، لأنها تتقدم كعفوية فوضوية ضد القانون..

هناك إغراء ممكن لحركات النساء، لاسيما في البلدان الموصوفة بالنامية. يتقدم نفس الخطر في بلدان أوروبا الغربية بكيفية مخالفة: فبينما تعمل البورجوازية التكنوقراطية الليبرالية على ضمان تحسين وضعية النساء (إدماج للنساء، بكيفية أكثر أو أقل جدلية وتنويرا، في التدبير الاجتماعي والسياسي)، تؤيد بعض التيارات «النسوية» التعارضات القديمة التي تعتقد مقاومتها حينما تدعي أنها تستوحي أفكارها من نزعة راديكالية منحدرة من حركة ماي 1968. هكذا يتم، في مقابل الوضوح القضيبي، تنصيب خطاب ظلامي

1 يفسر دومينيك بوردان الشعور المحيطي كما ورد في نظرية اللاشعور الفرويدية كما يلي: "هو عبارة عن إحساس بالانصهار المقترن بالسعادة مع الكل. يرى فيه فرويد من جهة، شعورا بعيدا عن أن يكون كونيا، ومن جهة ثانية تصورا دينيا أقرب إلى الاكتشاف الاستيهامي للعالم الأمومي". يراجع:

Dominique Bourdin, *La psychanalyse de Freud à aujourd'hui: histoire, concepts, pratique*, Bréal, 2007, p.133

2 سالفادور أليندي (1908-1973)، طبيب وزعيم اشتراكي وأول رئيس شيلي ذي توجه ماركسي. تولى مقاليد الرئاسة في نونبر 1970 بعد فوزه في أول انتخابات ديمقراطية في الشيلي، قبل أن يتم إسقاطه إثر انقلاب دموي أفضى إلى إقامة نظام عسكري تحت قيادة الديكتاتور أوغستو بينوتشي.

كمثال يفترض أنه ملتبس أو مقترن بمتعة تحررية، حيث يتم إعلان إنجازات نسائية رديئة («هذا أمر جيد، لأنها أنجزت من طرف النساء»). وبذلك نغوص في اضطهادات استيهامية للمثقفين والمثقفات الذين يُتهمون بكيفية لا تخلو من التسرع بالأبوية والنخبوية.

إليان بوكي: يبدو لي أن تحليل اليسار غير كاف، ليس فقط فيما يتعلق بالمحددات الليبيدية، لكن كذلك، وبدقة، على المستوى الاقتصادي: فهو لا يَعرف إلا علاقات الإنتاج، بينما يجهل كل شيء عن إعادة إنتاج النوع البشري، إذ تشكل هذه الأخيرة مع ذلك أحد العناصر المؤسسة للأولى، بضمانها لتربية المنتج والمستهلك.

جوليا كرستيفا: بالفعل، تختزل المرأة هنا في الغالب في قوة إنتاج ينبغي منحها وعيا طبقيا. المشكل بالغ الأهمية لكنه غير قابل للتحقيق بمنطق القرن 19. من الضروري فتح السوسيولوجيا على تأويل من نمط تحليل-نفسي، من أجل فهم كيف أن علاقات إعادة الإنتاج تتواءم مع علاقات الإنتاج وتشكل حقيقة اجتماعية حارقة جديدة. بخلاف ذلك، سيظل خطاب اليسار في وضعية متأزمة أمام الظواهر الجديدة (النساء، الشباب، المخدرات، الإعلام). ذاك هو مشكل الفاشية الملازم لزمننا: إذ جففت منذ الثلاثينيات منابع القوى الطلائعية التي وجد الخطاب العقلاني الضيق الأفق نفسه مشلولا أمامها، حيث إن هذه النزعات الخاصة بالأزمنة الحديثة ابتُلعت، إما من طرف التوتاليتارية أو من قبل اللاعقلانية الصوفية.

إليان بوكي: عرضت مثالا عن التماهي القضيبي، هلا تقدمين لنا مثالا عن الارتداد، ذلك الخطر الآخر الذي يهدد الخاضعين؟

جوليا كرستيفا: لقد غدت حركة النساء نقطة ربط بين مقاومات مختلفة أو عداوات ضد التحليل النفسي. يبدو أن الأمور تسير في طريقها إلى التغيير بالولايات المتحدة الأمريكية، مع ما يرافق ذلك من بسط للأسئلة. ومع ذلك، لازلنا على هذا المستوى متأخرين بأوروبا... من المسلم به أن النضال النسائي يقتضي أن ينتصب ضد القانون، اسم الأب، إلخ. في هذا الشأن، تأثرتُ ببعض نصوص لاكان التي أصدرها عام 1938، والتي تصف تحولات العائلة الغربية: تهجين وظيفة الأب والتليين الخفيف للكبت الذي يحط بثقله على الوظيفة الأمومية. كل ذلك أنتج أزمة المكبوت الذي ينفجر مهددا بأخذ أشكال خطيرة، بل وتوتاليتارية. لقد أجاب التحليل النفسي عن أزمة الضبط الأبيسي والتوحيدي للأسرة الغربية، بإعادة تأويل مؤسسة القانون: ليس بإعادة ترميم سلطة الـ «بابا papa» وإنما اسم الأب؛ لأن من شأن بزوغ المكبوت، بحكم أنه كان بالفعل مكبوتا، أن يلغي السلطة الأبوية، ويترك الباب مشرعا أمام الفوضوية والعودة إلى الأم البدائية المُطْلقة (بدون آخر، بدون أب)، ومن ثم التواطؤ مع النكوصية وصولا إلى درجة انفجار الجنون.

إليان بوكي: ومع ذلك لا يمكن للنسوية أن تقبل بكبت الأم مقابل حماية القانون.

جوليا كرستيفا: بالطبع، لهذا السبب يتم البحث عن الوسائل الكفيلة بإفساح المجال أمام هذا المكبوت للكلام من خلال التسامي الموصوف بالجمالي أو الثقافي. هذا ما سعت الطلائعية الأدبية إلى تحقيقه، من بين حركات أخرى، منذ نهاية القرن: مالارميه، جويس...

لا يمكن إثبات عدم صلاحية الاكتشاف الفرويدي للاوعي وللوظيفة الأبوية من أجل بناء نظام اجتماعي: هذا الاكتشاف، كما هو الشأن بالنسبة إلى إشكالية «الخصي»، يخص الرجال والنساء على حد سواء، بل أكثر من ذلك، يمكننا التفكير في إيلاء المزيد من الاهتمام (وهو ما لم يستطع فرويد طرحه في أعماله الرائدة) بالقارة ما قبل الأوديبية؛ أي بعلاقة الذات المتكلمة بالأم، وانطلاقا من ذلك، بوضعية غير متعالية بل محايثة، وبالنتيجة، أكثر مرونة وأقل بطشا بالكبت وبكل الإكراهات الاجتماعية. تفرض إعادة تقييم الوظيفية الأمومية نفسها، إذا، ليس كمكبوت قابل للانفجار، بل كتدعيم لبعض الممارسات المسماة هامشية (الممارسات الجمالية على سبيل المثال) ولكل تجديد: كل ذلك يبحث لنفسه عن موطئ قدم في الغرب الحالي، سواء بالنسبة إلى الرجال أو بالنسبة إلى النساء، لاسيما داخل الحركة النسائية...

إليان بوكي: مثال ملموس عن العقبة الثانية التي تنتظر المكبوت، عندما تُتخيل عودته بمعزل عن الإكراهات الاجتماعية ويُترك للوقوع في شراك التقهقر الاجتماعي والنفسي؟

جوليا كرستيفا: رفض النشاط الفكري: ألا تصرح بعض التيارات النسوية بأن المفاهيم ذاتها ذكورية ينبغي تفاديها من طرف النساء؟ التشكيك في الإنجازات المتفردة: لا توجد استثناءات، لا توجد أسماء خصوصية. اختفاء الفرد في الجماعة التي نجهل طابعها الإكراهي (سؤال: ماذا تكبت جماعة من النساء؟). التوصية المستوحاة اعتباطا من الذهان: لا نرى في إنجاز المرأة الكاتبة استثناء دراماتيكيا، ورغم ذلك يتم الاستحواذ على اسمها بعد الانتحار، بعد تعريضها للإهمال طيلة حياتها (فلتمُتْنَ، ستعطيكن الجماعة لقبا)، باسم أنوثة تُفهم كعودة للأم ما قبل الأوديبية.

إبداع

إليان بوكي: كيف يتسنى درء هذه العقبات؟ ما السبيل للإبداع؟

جوليا كرستيفا: ومن يدري؟ يمكنني القول، على الأقل، بالإنصات، بالإصغاء إلي. لا يتعلق الأمر بكبت تلك العلاقة البدائية بالأم، تلك المرحلة (أو ذلك النمط من الترميز) التي أسميها «السيميائي»، بل على العكس من ذلك، منحها تعبيرها وتمفصلها. وبعدم فصلها، أيضا، عن إنجاز «رمزي» ما أكثر تبصرا يُدركها وينقلها إلى الوعي. في الواقع، كل نشاط إبداعي، إذا شئت استعمال هذه الكلمة، يستكمل عملية محايثة الليبيدو في المنطقة الرمزية، أو، إذا أردت، جدلنتهما وانسجامهما. لا يعني التجديد أبدا تكرار خطاب الأب،

ولا النكوص نحو أم بدائية. يفترض التجديد أن تستطيع الذات، المرأة على الأرجح، التكفل بكل جهازها النفسي ومضمراتها الليبيدية، ومن ثم استثماره في تجربة رمزية ما. يستحيل التجديد، كيفما كان ميدانه، إن كان بالفعل جديدا، إذا لم يكن عبارة عن إعادة تشغيل كاملة لليبيدو في الرمزي. إذا كان الضبط مشفرا في مجتمعاتنا بكيفية ذكورية كما هو الشأن بالنسبة إلى المنطق، التركيب، ومن جهة أخرى إذا كانت الإيقاعات واللثلثة les glossolalies ما قبل الأوديبية تندرج ضمن سجل الأم، وانطلاقا من هنا ضمن سجل المرأة، يمكن أن نقول إن كل إبداع مشدود ليس إلى الاختلاف، بل إلى الازدواجية النفسية التي تشتغل بين هاتين الضفتين.

إليان بوكي: تقصدين في كل إبداع، سواء إبداع الرجال أو إبداع النساء، وفي كل الميادين.

جوليا كرستيفا: بكل تأكيد، ما نسميه بـ«الفن» يبرز بجلاء هذا الانبجاس أو هذه المحايثة للسيميائي في الرمزي[3]. يُحول «الفن» اللغة إلى إيقاعات وكل انحراف إلى صور أسلوبية. إنه نمط من انتهاك المحارم داخل اللغة؛ يضمن الأسلوب دخول «الموسيقى إلى الحروف» وفق تعبير لمالارميه. نعثر على هذه الظاهرة بكيفية مؤكدة، بل وحتى تراجيدية، في الفن الحديث منذ نهاية القرن 19. إنها سيرورة جد قريبة من الفصام، بيد أن الفن الحديث يفلح، حيث يفشل الانفصامي في محاولته للتحرر من القيد المنطقي، من قانون الأب بسقوطه في اللارمزية أو الهذيان. على العكس من ذلك، يبتكر الفنان المعاصر ويعيد بلورة خطاب جديد، عالم جديد بلمسه للسقوط، وهو قابع في مكانه. لننصت إلى آرطو، إلى الألفاظ المنحوتة لجويس، إلى السورياليين، وإلى بعض النصوص التي أُنتجت في إطار مجلة تيل كيل Tel Quel.

أن تبدعي وأنت امرأة

إليان بوكي: وماذا عن المرأة حينما تكون هي من يستكمل هذا التلاقي من جديد مع الأم لصياغته (الخطاب الجديد)؟

جوليا كرستيفا: صرحت في البداية أن «الهوية النسائية» هي من جهة «مفعول المرأة»، ومن جهة أخرى «وظيفة أمومية». تتضمن الوظيفة الأمومية للتو التجربة ما قبل الأوديبية التي تستعاد في الفعل الإستطيقي.

3 تقصد كرستيفا بالسيميائي العمليات الذهنية والنفسية ما قبل الأوديبية التي تسبق تشكل الأنا واستقلالها عن الأم كموضوع منفصل. معنى ذلك، أن السيميائي يشتغل في سياق الانصهار النفسي والوجداني في جسد الأم. في المقابل، يعبر الرمزي عن تحول الفرد إلى ذات متكلمة بعد اجتيازه الاختبار النفسي العسير لعقدة أوديب، تحت تأثير اشتغال سيرورة التماهي مع صورة الأب التي تجسد القانون والقواعد الاجتماعية. ما يميز نظرية كرستيفا للذات وللغة، هو أنها تنظر للغة الإنسانية ككيان قائم على تمفصل الرمزي، الذي يحيل إلى قواعد النحو والتركيب والصرف، مع السيميائي الذي يشير إلى البياضات والعلامات غير المفهومة المخلخلة للعلاقة دال/مدلول والمزعجة لبنية المعنى في النسق اللغوي، كما يحيل إلى تعالق أعراض الجسد وآثار الطفولة المبكرة ما قبل اللغوية مع اللغة الرمزية، وهو ما يتبدى بجلاء في تجربة الشعراء الطلائعيين من أمثال لوتريامون، مالارميه وآخرين. لمزيد من التفصيل، يمكن العودة إلى:

Julia Kristeva, *La révolution du langage poétique. L'avant-garde à la fin du XIX siècle. Lautréamont et Mallarmé*, Paris, Ed. Seuil, Coll. Points, 1974

تتميز الوظيفة ما قبل الأوديبية بإشباعات بدائية، شفاهية، شرجية، وبعدم التمييز بين الحاجة والطلب والرغبة، وبجسد مجزأ لا يزال غير محدد كجسد خاص، بما أن هوية الأنا والأنا الأعلى مشروطة بالتماهي مع الأب وباكتساب اللغة. تقتضي التنشئة الاجتماعية للفرد إذن الكبت أو إعلاء هذه العلاقة البدائية بالأم: إن منع زنا المحارم الذي يؤسس، كما نعرف، النظام الاجتماعي وفي نفس الوقت نظام اللغة، هو في الواقع تحريم الأم بالنسبة إلى الابن وإلى البنت على حد سواء؛ بيد أن الرجل يعثر على بديل للأم في الشريك الجنسي، بينما تظل المرأة دائما تلك المنفية من هذه الأرض البدائية، بما أن شريكها الجنسي معياريا هو رجل. لذا تعد الأم غريبا بالنسبة إلى المرأة ذات الهوية الجنسية الغيرية. وهذا ما يفسر في نفس الوقت نزعتي الحب والكرهٍ؛ فالاثنان معا شديدا العنف إزاء الأم. يمكن أن تشكل نزعة الكره-الحب تلك، والتي تظل مكبوتة في غالب الأحيان، محركا قويا للرمزية، لكن يمكن أن تفضي إلى الانحرافات الهذيانية للهستيريا، كما يمكن أن تتجسد في صور الإعلاء والإنجاز الإستطيقي.

إليان بوكي: إذا كان الأب يلاطف الطفل، ويهتم به منذ طفولته المبكرة، إذا كان يطعمه بالرضاعة منذ طفولته المبكرة، ألا يعيد هذا الأمر طرح السؤال من الأساس؟

جوليا كرستيفا: في الواقع، أعتقد أن هذا الأمر يطرح المشكلة بطريقة مغايرة. سبق أن تشكل لدي انطباع بأنه في الصين مثلا، حيث إن اليين واليانغ yin et yang ملازمين للرجال كما هو الحال بالنسبة إلى النساء، لا يشعر الطفل بالانفصال بين الجنسين بطريقة مؤلمة.

في مجتمعاتنا، يمكن لتماهي المرأة الفحولي أو، عند الاقتضاء، للمثلية الجنسية النسوية، أن يغيثا المؤنث، ذلك المنفي دوما من الأرض الأمومية، والذي تضطر المرأة لفقدانه كي تصير ذات هوية جنسية غيرية. يتعلق الأمر بدعامتين يمنحهما الليبيدو الأنثوي لذاته لإشباع هذا الإحباط. لكنهما دعامتان هشتان تعجزان عن تعويض الحرمان الأولي. هل يصعب تجاوز حداد الأم غير التام بالنسبة إلى المرأة على غرار قلق الخصي بالنسبة للرجل؟ ماذا يحصل عندما تستكمل المرأة، التي تقاوم «الإخصاء» نظير كل كائن متكلم، هذا التلاقي من جديد مع الأم، علما أن هذا العبور، بمجرد ما يتم، يقودها إلى تغيير الشفرات الرمزية لمجتمع ما وإلى ابتكار اللغة؟ يبدو لي أن الإنجازات، تلك الأشياء الفيتيشية والآثار المكتوبة ومقالات الصحافة والإشادات، أقل إرضاء للنساء، وليس لها نفس الوزن الذي يحظى به الرجال. ربما كانت فرجينيا وولف Virginia Woolf مهتمة جدا، وأيضا قلقة، بشأن الترحيب الذي لقيته أعمالها، لكن هذا الترحيب لم يرْق أبدا إلى درجة الإرضاء النرجسي الذي يمكن أن يمحو القلق الدائم الذي يدفع إلى تفكيك اللغة، إلى تدمير هويتها كي تبلغ حد الجنون، درجة الانتحار. لم يُحرم بروست Proust من أمه، كما لم يُحرم من تلك النماذج الأكثر أو الأقل نبلا من أوريان دو غيرمانتيس Oriane de Guermantes كدعامة لصورة إرضائية،

واستمتع كافكا Kafka بأولئك الخطيبات العابرات جدا لتجميع رغباته المثلية، كما حظي جويس Joyce بنورا Nora الزوجة والآنسة ويفر Weaver وسخيات أخريات شكلن بالنسبة إليه ذلك المنفذ الأمومي الذي يسمح للرجل بمواصلة مسيرته الإعلائية. لكن فيما يخص المرأة، عندما تنهار الصورة الأبوية، فإن صورة الأم، أو البدائل التي تحضر، يمكن أن تبدو تافهة وأن لا تقاوم القلق. يبدو لي أن خطر الذهان، مع ما يصاحب ذلك من موكب «للشخصيات المزيفة»، عظيم بالنسبة إليها وبالنسبة إلينا. كما أن الرغبة في الموت، كرغبة للأنا في الامّحاء، تعد أيضا جد مألوفة.

لا تختزل الكتابة بالمؤنث بوضوح في العودة إلى سجل الأم، وهو ما يترتب عنه تنظيم رائع لهذا الغوص في شكل لوحة فنية، موسيقى، كلمة. لا يتعلق الأمر، عندما نباشر فعل الكتابة، بمجاملة الجنون، بالتقهقر، ولا بحنين بسيط إلى الأم البدائية. إن الأهم في كل ممارسة، هو الصراع من أجل العمل المنجز، والذي يعاد للتو إنجازه من جديد. يلزم، من أجل استكمال عمل ما، طبعا، نوع من التحرير للاوعي الذي يعرض الذات للمخاطرة وللخطر النفسي والحيوي، لكنها ليست مخاطرة مكشوفة: إذ يوجد التناقض بين الميدان الرمزي والنداء النزواتي دائما هناك، هذا التناقض المُتشبث به والمُتجدد، والذي يشكل بوتقة إقبال الجديد.

إليان بوكي: تجربة جد صعبة بالنسبة إلى المرأة؟

جوليا كرستيفا: نحن مدعوون، من جهة أخرى، فور تحليل الكبت الذي يشكلنا كبنات للأب، زوجات وأمهات، إلى تجارب-حدود بسبب هذه العلاقة النوعية بالأم، حب-كره بالغ، نحن في نفس الوقت أكثر هشاشة لأن التماهي مع الأشياء الفيتيشية، مثل الكتاب، أو الشهرة، لا تمثل إلا دعامة سخيفة أمام عنف هذه العلاقة، هذا الإحباط الأساسي.

إليان بوكي: ولعل ذلك هو ما أنجب هذا العمل المختلف؟ الأكثر عنفا ربما؟

جوليا كرستيفا: لا يزال في جعبة النساء الشيء الكثير لتعليمنا حول الكره الكامن في الحب الذي تكتشفه الثقافة النصرانية كأساس لكل إعلاء.

أنا مقتنعة، إذا وضعنا هذا جانبا، بأنه ينبغي الاحتراز من جنسنة الإنتاجات الثقافية: هذا مؤنث، ذاك مذكر. يبدو المشكل مختلفا بالنسبة إلي: منح النساء الشروط الاقتصادية والليبيدية من أجل تحليل وجدلنة القمع الاجتماعي والكبت الجنسي، بكيفية يمكن معها لكل واحدة، بما تتمتع به النساء من تفرد، تحقيق خصوصياتها واختلافاتها التي أنتجتها الصدف وضرورات الطبيعة والأسرة والمجتمع. من له المصلحة في أن يطلب من المرأة الكتابة بكيفية مماثلة لـ(جميع) النساء؟ لا يجب أن يكون هذا التعميم للوضع النسائي إلا رافعة للصراع الكوني من أجل تمكين كل واحدة من الحديث عن تفردها. وهذا الكلام لا يستقيم وصفه أكثر «رجاليا» منه

«نسائيا». إنه كلام لا يُعَمم، نوعي وغير قابل للمقارنة، نساء بصيغة المفرد: هل نستطيع أن نجعل من القدوم الكثيف للنساء على مدى التاريخ، جمعا للمفرد؟ سيكون ذلك بمنزلة تجديدنا، مساهمتنا في حضارة شفافة وواعية بإكراهاتها، حضارة ستكون مهددة، إن هي حرمت من معادل موازن، من طرف توتاليتاريات جديدة ستنضم إليها من الآن فصاعدا عملية تأليه automatisation النوع البشري.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018

All rights reserved © 2018